فقوله : ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ .. (١١٨) ﴾ [المائدة] يقتضى أن يقول : فإنك غفور رحيم ، لكن الحق سبحانه عدل إلى ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة] لأن الذنب الذى وقع فيه القوم ذنب فى القمة ، فى الألوهية التى أخذوها من الله وجعلوها لعيسى عليه السلام ، وهذا بمقتضى العقل يستوجب العذاب الشديد ، لكن الحق سبحانه لا يُسأل عما يفعل ، يُعذِّب مَنْ يشاء ، ويغفر لمَنْ يشاء ، فإنْ غفر لهم فبصفة العزة التى لا يعارضها أحد ، فكأن المنطق أن يُسأل الله : لماذا لم تُعذِّب هؤلاء على ما ارتكبوه ؟ لذلك دخل هنا من ناحية العزة ، التى لا تُعارَض ، والحكمة التى لا تخطىء .

وبعد أن ذكر الحق سبحانه مسألة الفاحشة ، وما يترتب عليها من عقاب ذكر سبحانه المقابل ، فقال تعالى :

﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) ﴾

معنى ﴿ يَقْنُتْ .. (٣١) ﴾ [الأحزاب] أى : يخضع لله تعالى الخضوع التام ، ويخشع ويتذلَّل لله فى دعائه ، واختار الحق سبحانه القنوت ؛ لأنه سبحانه لا يحب من الطائع أنْ يُدِلَّ على الناس بطاعته ؛ لذلك يقول العارفون : رُبَّ معصية أورثت ذلاً وانكساراً ، خير من طاعة أورثتْ عِزّاً واستكبارا[1] .

(١)هذه الحكمة من حكم ابن عطاء الله السكندرى (متصوف شاذلى ، من العلماء ـ توفى ٧٠٩ هـ) ، وقد ذكر عبد العال كحيل هذه الحكمة لابن عطاء الله فى كتابه « أبو العينين الدسوقى » طبعة دار الشعب ـ ص ٧٦ .

أو ﴿ وَمَن يَقْنُتْ .. (٣١) ﴾ [الأحزاب] أى : بالغ فى الصلاح ، وبالغ فى الورع حتى ذهب إلى القنوت ، وهو الخضوع والخشوع .

والنتيجة ﴿ نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ .. (٣١) ﴾ [الأحزاب] فالآية السابقة تقرر مضاعفة العذاب لمن تأتى بالفاحشة ، وهذه تقرر مضاعفة الأجر لمن تخضع لله وتخشع وتعمل صالحاً .

﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) ﴾ [الأحزاب] أى : أعددناه وجهّزناه لها من الآن ، فهو ينتظرها .

وحين تتأمل الأسلوب القرآنى فى هاتين الآيتين تطالعك عظمة الأداء ، فحين ذكر الفاحشة ومضاعفة العذاب جاء الفعل ﴿ يُضَاعَفْ .. (٣٠) ﴾ [الأحزاب] مبنياً لما لم يُسَمَّ فاعله ، أما فى الكلام عن القنوت لله ، فقال ﴿ نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا .. (٣١) ﴾ [الأحزاب] فجاء الفعل مُسْنَداً إلى الحق سبحانه مباشرة ، وكأن الحق سبحانه لم يُرِدْ أنْ يواجه بذاته فى مقام العذاب ، إنما واجه بالعذاب فقط .

ومجرد بناء الفعل ﴿ يُضَاعَفْ .. (٣٠) ﴾ [الأحزاب] للمجهول يدل على رحمة الله ولُطْفه فى العبارة ، فالحق سبحانه يحب خَلْقه جميعاً ، ويتحبب ويتودد إليهم ، ويرجو من العاصى أنْ يرجع ويفرح سبحانه بتوبة عبده المؤمن أكثر من فرح أحدكم حين يجد راحلته وقد ضلَّتْ منه فى فلاة[1] .

وجاء فى الأثر : « يا ابن آدم ، لا تخافنَّ من ذى سلطان ما دام سلطانى باقياً وسلطانى لا ينفد أبداً ، يا ابن آدم ، لا تخْشَ من ضيق الرزق وخزائنى ملآنة وخزائنى لا تنفد أبداً ، يا ابن آدم ، خلقتُكَ

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

للعبادة فلا تلعب ـ والمراد باللعب العمل الذى لا جدوى منه ـ وقسمتُ لك رزقك فلا تتعب » .

والمراد هنا لا تتعب ، ولا تشغل قلبك ، فالتعب يكون للجوارح ، كما جاء فى الحديث النبوى الشريف : « مَنْ بات كالاً من عمل يده بات مغفوراً له »(١) ولما رأى رسول الله ﷺ يداً خشنة من العمل قال : « هذه يد يحبها الله ورسوله »(٢) .

فالتعب تعب القلب ، فالشىء الذى يطيقه صدرك ، وتقدر على تحمُّله لا يُتعبك ؛ لذلك نجد خالى الصدر من الهموم يعمل فى الصخر وهو هادىء البال ، يغنى بحداء جميل ونشيد رائع يُقوِّى عزيمته ، ويعينه على المواصلة ، فتراه مع هذا المجهود فَرِحاً منشرحَ الصدر .

وقد فطن الشاعر العربى لهذه المسألة فقال :

لَيْسَ بحمْلٍ مَا أطَاقَ الظَّهر ... مَا الحمْلُ إلاَّ مَا وَعَاهُ الصَّدْرُ

فالمعنى : أتعب جوارحك ، لكن لا تُتعب قلبك ، والكَلَل والتعب لا يأتى على الجوارح إنما على القلب ، فأتعب جوارحك فى العمل الجاد النافع الذى تأخذ من ثمرته على قدر حاجتك ، وتفيض بالباقى على غير القادرين .

---

(١) أورده السيوطى بهذا اللفظ فى « الدرر المنتثرة » (حديث ٤٠١) من حديث أنس مرفوعاً وعزاه لابن عساكر . وأورده الهيثمى فى « مجمع الزوائد » (٤/٦٣) من حديث ابن عباس قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أمسى كالاً من عمل يديه أمسى مغفوراً له » وقال : « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه جماعة لم أعرفهم » . قال الحافظ العراقى فى تخريجه لأحاديث الإحياء (٢/٩٠) : « فيه ضعف » .

(٢) مما رُوى فى هذا أن رسول الله ﷺ قال : « ما أكل أحد طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده . وأن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٧٢) من حديث المقدام بن معديكرب .

ثم يقول : « فإنْ أنتَ رضيتَ بما قَسمتُه لك أرحتُ قلبك وبدنك ، وكنتَ عندى محموداً ، وإنْ أنت لم تَرْضَ بما قَسَمْتُه لكَ فوعزتى وجلالى لأسلطنَّ عليك الدنيا تركضُ فيها ركْضَ الوحوش فى البرية ، ثم لا يكون لك منها إلا ما قَسَمْتُه لك ، وكنتَ عندى مذموماً ، يا ابن آدم ، خلقتُ السموات والأرض ولم أعْىَ[1] بخلقهن ، أيُعْيينى رغيفٌ أسوقه لك .. يا ابن آدم ، لا تطالبنى برزق غد كما لم أطالبك بعمل غدٍ ، يا ابن آدم أنا لم أنْسَ مَنْ عصانى ، فكيف بمَنْ أطاعنى ؟ » .

وشاهدنا هنا قوله تعالى فى آخر الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، أنا لك محب فبحقى عليك كُنْ لى مُحباً »[2] .

فربُّكَ يظهر لك بذاته فى مقام الخير وجلب النفع لك ، أما فى الشر فيشير إليك من بعيد ، ويلفت نظرك برِفْق .

كما نلحظ فى أسلوب الآية قوله تعالى - والخطاب لنساء النبى ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ .. (٣١) ﴾ [الأحزاب] ولم يقل تقنت ، ثم أنَّثَ الفعل فى ﴿ وَتَعْمَلْ صَالِحًا .. (٣١) ﴾ [الأحزاب] فمرة يراعى اللفظ ، ومرة يراعى المعنى ، وسبق أنْ قُلْنا إن (مَنْ) اسم موصول يأتى للمفرد وللمثنى وللجمع ، وللمذكر وللمؤنث .

ونقف أيضاً هنا عند وصف الرزق بأنه كريم ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) ﴾ [الأحزاب] قلنا : إن الرزق كل ما يُنتفع به من مأكل ، أو مشرب ، أو ملبس ، أو مسكن ، أو مرافق ، وقد يأتى فى صورة معنوية كالعلم والحلم .. إلخ ، وهذا الرزق فى الدنيا لا يُوصف بأنه

---

(١) عىَّ بالأمر فهو عىٌّ وعيىٌّ : عجز عنه ولم يُطق إحكامه . [لسان العرب - مادة : عيا] .

(٢) أورد هذه القطعة من الأثر الإمام أبو حامد الغزالى فى « إحياء علوم الدين » (٢٩٦/٤) قال : « فى بعض الكتب : عبدى أنا وحقك لك محب ، فبحقى عليك كُنْ لى محبا » .

كـريم ، إنما الـكريم هو الرازق سبحـانه ، فلمـاذا وصف الرزق بأنه كريم ؟

قالوا : فَرْق بين الرزق فى الـدنيا والرزق فى الآخرة ، الرزق فى الدنيـا له أسـبـاب ، فـالسـبـب هو الرازق من والد أو وَال أو أجـيـر أو تاجـر .. إلخ فـالذى يَجـرى لك الرزق على يـديه هو الذى يُوصف بالكرم ، أما فى الآخرة فالرزق يأتيك بلا أسباب ، فناسب أنْ يُوصف هو نفسه بأنه كريـم ، ثم فيهـا ملحظ آخر : إذا كـان الرزق يوصف بالكرم ، فما بال الرازق الحقيقى سبحانه ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا (٣٢) ﴾

كلمة (أحد) تُستخدم فى اللغة عدة استخدامات ، فنقول مثلاً فى العدد : أحـد عشـر إنْ كان المعـدودُ مذكراً ، وإحـدى عشـرة إن كان المعـدود مؤنثاً ، أما فى حـالة النفى فلا تُستـعمل إلا بصيغـة واحدة (أحد) ، وتدل على المفرد والمثنى والجمع ، وعلى المذكر والمؤنث ، فتقـول : ما عندى أحد ، لا رجلٌ ولا امرأة ولا رجـلان ولا امرأتان ، ولا رجـال ولا نساء ، لذلك جـاء قوله تعـالى : ﴿ ولَمْ يكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ (٤) ﴾ [الإخلاص]

وقوله سبـحانه : ﴿ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ .. (٣٢) ﴾ [الأحزاب] هذه خـصـوصـيـة لهن ؛ لأن الأشـياء تمـثل أجناسـاً وتحت الجنس النوع ،

فالإنسـان مثـلاً جنس ، منه ذكر ومنه أنثى ، وكل نوع منهـما تحـته أفراد ، والذكر والأنثى لم يفترقا إلى نوعين بعد أنْ كانا جنساً واحداً ، إلا لاختلاف نشأ عنهـما بعد اتفاق فى الجنس فالجنس حَدٌّ مُشترك : حىٌّ ناطق مفكر ، فلما افترقا إلى نوعين صـار لكل منهما خصوصيته التى تُميِّزه عن الآخر .

كما قلنا فى الزمن مثلاً ، فـهو ظرف للأحداث ، فإنْ كانت أحداثَ حـركـة فهى النهـار ، وإنْ كـانت أحـداثَ سُكُون فـهى الليل ، فـالليل والنهار نوعان تحت جنس واحد هو الزمن ، ولكل منهما خصوصيته ، وعلينا أن نراعى هذه الخصوصية ، فلا نخلط بينهما .

وتأمل قول الله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ۝ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝ ﴾ [الليل]

فـالليل والنهار مـتقـابلان مـتكاملان لا مـتضـادان ، كذلك الذكـر والأنثى ، ولكلٍّ دوره ومهـمته الخـاصة ، فإنْ حـاولتَ أنْ تجعلَ الليل نهـاراً ، أو الذكـر أنثى أو العكس ، فـقد خـالفتَ هذه الطبيـعـة التى اختارها الخالق سبحانه .

وحكينا قصة الرجـل الذى مرَّ على عمدة القرية ، فـوجده يضرب غفـيراً عنده ، فـدافع عن الغفـير وقـال للعمـدة : لماذا تضـربه يا عم إبراهيم ؟ قال : مـررتُ عليه ووجدتُه نائماً ، فـقال الرجل : نام ؛ لأنه قضى النهار يروى لك أرضك ، ومنْ يحرث لا يحرس .

إذن : تحت الـجنس النوع ، وهـذا النوع غـيـر مـتكـافىء ؛ لأنه لو تساوى لكان مكـرراً لا فائدة منه ، إنما يخـتلف الأفراد ويتمـيزون ؛ لذلك لا تظن أنك تمتـاز عن الآخرين ؛ لأن الله تعـالى وزَّع المواهب بين خَلْقه ، فأنت تمتاز فى شىء ، وغيرك يمتاز فى شىء آخر ، ذلك ليرتبط

الناس فى حركة الحياة ارتباطَ حاجةٍ ، لا ارتباطَ تفضُّل كما قُلْنا .

لذلك ، فالرجل الذى يكنس لك الشارع مُميَّزٌ عنك ؛ لأنه يؤدى عملاً تستنكف أنت عن أدائه ، وإذا أدَّى لك هذا العامل عملاً لابُدَّ أنْ تعطيه أجره ، فى حين إذا سألك مثلاً سؤالاً وأنت العالم أو صاحب المنصب .. إلخ فإنك تجيبه ، لكن دون أنْ تأخذ منه أجراً على هذا الجواب ، وقد مكثتَ أنت السنوات الطوالَ تجمع العلم وتقرأ وتسمع ، إلى أنْ وصلتَ إلى هذه الدرجة ، وصارت لك خصوصية ، إذن : لكل منا ، ذكر أو أنثى ، فردية شخصية تُميِّزه .

هنا يقول الحق سبحانه لنساء النبى ﴿ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ .. (٣٢) ﴾ [الأحزاب] هذه هى الخصوصية التى تُميِّزهن عن غيرهن من مطلق النساء ، فمطلق النساء لَسْنَ قدوة ، إنما نساء النبى خاصة قدوة لغيرهن من النساء وأُسْوة تُقتدى .

والشرط بعد هذا النفى ﴿ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ .. (٣٢) ﴾ [الأحزاب] يعنى : أن زوجيتهن لرسول الله ليست هذه ميزة ، إنما الميزة والخصوصية فى تقواهن لله ، وإلا فهناك من زوجات الأنبياء مَنْ كانت غير تقية .

وقوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ .. (٣٢) ﴾ [الأحزاب] أى : اقْطَعْنَ طريق الفاحشة من بدايته ، ولا تقربن أسبابها ، واتركْنَ الأمور المشتبهة فيها . ومعنى الخضوع بالقول أنْ يكون فى قول المرأة حين تخاطب الرجال ليونة ، أو تكسُّر ، أو ميوعة ، أو أن يكون مع القول نظرات أو اقتراب .

فإذا اضطررتُنَّ لمحادثة الرجال فاحذرْنَ هذه الصفات ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ .. (٣٢) ﴾ [الأحزاب] والمعنى : أنا لا أتهمكُنَّ ، إنما الواحدة منكُنَّ لا تضمن الرجل الذى تُحدِّثه ، فربما كان فى قلبه

مرض[1] ، فلا تعطيه الفرصة .

وليس معنى عدم الخضوع بالقول أنْ تُكلِّمْنَ الناسَ بغلظة وخشونة ، إنما المراد أن تكون الأمور عند حدودها ؛ لذلك يقول سبحانه بعدها ﴿ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً (٣٢) ﴾ [الأحزاب] فلما نهى القرآن عن التصرف غير المناسب عرض البديل المناسب ، وهو القول المعروف ، وهو من المرأة القول المعتدل والسماع بالأذن دون أنْ تمتد عينها إلى مُحدِّثها ؛ لأن ذلك ربما أطمعه فيها ، وجرَّأه عليها ، وهذا ما يريد الحق سبحانه أنْ يمنعه .

لذلك حُكي أن رجلاً رأى خادمته على الباب تُحدِّث شاباً وسيماً ، وكان يسألها عن شيء ، إلا أنها أطالتْ معه الحديث ، فضربها ربُّ البيت ونهرها على هذا التصرف ، وفي اليوم التالي جاء شاب آخر يسألها عن نفس الشيء الذي سأل عنه صاحبه بالأمس ، فبادرته بالشتائم والسُّباب بعد أنْ ظهر لها ما في قلب هذا ، وأمثاله من مرض .

وفي موضع آخر من هذه السورة سيأتي : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً (٥٩) ﴾ [الأحزاب] ؛ لأن الرجل حين يجد المرأة محتشمة تستر مفاتن جسمها لا يتجرأ عليها ، ويعلم

---

(١) قال ابن عرفة : المرض في القلب فتور عن الحق ، وفي الأبدان فتور الأعضاء وفي العين فتور النظر . وعين مريضة : فيها فتور ، ومنه قوله : ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ .. (٣٢) ﴾ [الأحزاب] أي : فتور عما أمر به ونُهي عنه . نقله ابن منظور في [لسان العرب ـ مادة : مرض] وقال ابن كثير في تفسيره : مرض أي : دغل ، والدغل هو الفساد وأصل الدغل الشجر الملتف الذي يكمن أهل الفساد فيه [لسان العرب ـ مادة : دغل] .

أنها ليستْ من هذا الصنف الرخيص ، فيقف عند حدوده .

وقد قال الحكماء : أما إذا رأيتَ امرأةً تُظهر محاسنها لغير محارمها وتُلحُّ فى عرض نفسها على الرجال ، فكأنها تقول للرجل (فتح يا بجم) تقول للغافل تنبه . فتستثير فيه شهوته ، فيتجرأ عليها .

فالحق سبحانه يريد لزوجات النبى ﷺ أولاً أنْ يُكلِّمْنَ الناس من وراء حجاب ، وأنْ يُكلِّمْنَ الناس بالمعروف كلاماً لا لينَ فيه ، ولا ميوعة حتى لا يَتعرَّضْنَ لسوء ، ولا يتجرأ عليهن بذىء أو مستهتر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾

معنى ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ .. (٣٣) ﴾ [الأحزاب] الزمنها ولا تُكثِرْن الخروج منها ، وهذا أدب للنساء عامة ؛ لأن المرأة إذا شغلتْ نفسها بعمل المطلوب منها فى بيتها وفى خدمة زوجها وأولادها ومصالحهم لَمَا اتسع الوقت للخروج ؛ لذلك كثيراً ما يعود الزوج ، فيجد زوجته مُنهمكة فى أعمال البيت ، وربما ضاق هو نفسه بذلك ؛ لأنه لا يجدها متفرِّغة له .

إذن : المرأة المفلسة فى بيتها هى التى تُكثر الخروج ، وتقضى

مصالح بيتها من خارج البيت ، ولو أنها تعلمتْ الصناعات البسيطة لَقضَتْ مصالح بيتها ، ووفَّرتْ على زوجها ، وقد حكوا لنا عن النساء فى دمياط مثلاً ، كيف أن المرأة هناك تعمل كل شىء وتساعد زوجها ، حتى أن البنت تتعلم حرفة ، ولا ترهق أباها عند زواجها ، بل وتوفر من المال ما يساعد زوجها بعد أن تتزوج .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ .. (٣٣)﴾ [الأحزاب] كلمة التبرج من البُرْج ، وهو الحصن ، ومعنى تبرَّج أى : خرج من البرج وبرز منه ، والمعنى : لا تخرجن من حصن التستر ، ولا تبدين الزينة والمحاسن الواجب سَتْرُها .

وقال ﴿تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ .. (٣٣)﴾ [الأحزاب] أى : ما كان من التبرج قبل الإسلام ، وكانت المرأة - ونعنى بها الأمَة لا الحرة - تبدى مفاتن جسمها ، بل وتظهر شبه عارية ، وكُنَّ لا يجدْنَ غضاضة فى ذلك ، وقد رأينا مثل هذا مثلاً فى إفريقيا .

أما الحرائر فى الجاهلية ، فكانت لهُنَّ كرامة وعفَّة ، فى حين كانت تُقام للإماء أماكن خاصة للدعارة والعياذ بالله ؛ لذلك لما أخذ رسول الله العهد على النساء المؤمنات ألاَّ يَزْنين قالت امرأة أبى سفيان[1] : أو تزنى الحرة يا رسول الله ؟ يعنى : هذا شىء مستنكف من الحرة ، حتى فى الجاهلية .

ومن معانى البرج : الاتساع ، فيكون المعنى : لا تُوسِّعْنَ دائرة التبرج التى حددها الشرع ، وهى الوجه والكفان .

(١) هى : هند بنت عتبة بن ربيعة ، أخبارها قبل الإسلام مشهورة ، وشهدت أُحُداً كافرة وفعلت ما فعلت بحمزة ، أسلمت يوم الفتح بعد زوجها أبى سفيان ، ماتت فى خلافة عثمان . [الإصابة لابن حجر ٢٠٦/٨] وقد ذكر ابن سعد فى طبقاته (٢٢٦/١٠) أن هذا حدث عند مبايعة النساء لرسول الله ﷺ . وهند هى أم معاوية بن أبى سفيان .

وفى موضع آخر ، قال تعالى : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ[1] مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لايَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ .. (٦٠) ﴾ [النور]

وتعجب من المرأة تبلغ الخمسين والستين ، ثم تراها تضع الأحمر والأبيض ، ولا تخجل من تجاعيد وجهها ، ولا تحترم السنَّ التى بلغتْها .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ .. (٣٣) ﴾ [الأحزاب] كثيراً ما قرن القرآن بين الصلاة والزكاة ، وبدأ بالصلاة ؛ لأنها عمدة التكاليف كلها ، وإنْ كنتَ فى الزكاة تنفق بعض المال ، والمال فرع العمل ، والعمل فرع الزمن ، فأنت فى الصلاة تنفق الزمن نفسه وتضحى به ، فكأنك فى الصلاة تنفق نسبة سبعة وتسعين ونصف بالمائة ، فضلاً عن الاثنين ونصف نسبة الزكاة .

كما يُفهم من إيتاء الزكاة هنا أن للمرأة ذمتها المالية الخاصة المستقلة عن ذمة الغير من أب أو زوج أو غيره ، بدليل أن الله كلفها بإيتاء الزكاة ، لكن الحضارة الحديثة جعلتْ مال المرأة قبل الزواج للأب ، وبعد الزواج للزوج ، ثم سلبتْ المرأة نسبتها إلى أبيها ، ونسبتها بعد الزواج لزوجها .

وهذه المسألة أشدُّ على المرأة من سَلْبها المال ؛ لأن نسبتها لزوجها طمسٌ وتَعَدٍّ على هُويتها ، وانظر مثلاً إلى السيدة عائشة ، فما زلنا حتى الآن نقول « عائشة بنت أبى بكر » ولم يقل أحد أنها عائشة امرأة محمد .

---

(١) القواعد : هنّ اللواتى قعدن عن الأزواج . وهى جمع قاعد ، وهى المرأة الكبيرة المسنَّة . وقعدت المرأة عن الحيض والولد تقعد قعوداً وهى قاعد : انقطع عنها . [لسان العرب - مادة : قعد]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. (٣٣) ﴾ [الأحزاب] لأن المسألة لا تقتصر على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، إنما هناك أمور أخرى كثيرة تحتاج طاعة الله وطاعة رسول الله .

ونلحظ هنا أن الآية عطفت رسول الله على ربه تعالى ، وجاء الأمر واحداً ﴿ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. (٣٣) ﴾ [الأحزاب] وحين نستقرىء هذا الأمر فى القرآن الكريم نجده مرة يُكرِّر الفعل ، فيقول : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. (١٢) ﴾ [التغابن]

ومرة : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ .. (١٣٢) ﴾ [آل عمران]

ومرة يقول تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ.. (٥٩) ﴾ [النساء]

وهذه الصيغ ، لكلٍّ منها مدلول ومعنى ، فساعةً يقول : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، كأن لله فى الأمر طاعةً فى الإجمال ، وللرسول طاعة فى التفصيل ، فالحق سبحانه أمر بالصلاة وأمر بالزكاة أمْرَ إجمال ، ثم بيَّن الرسول ذلك وفصَّل هذا الإجمال ، فقال : « صلُّوا كما رأيتمونى أصلى »[1] وقال : « خُذُوا عنِّى مناسككم »[2] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣١) ، وأحمد فى مسنده (٥/٥٣) من حديث مالك بن الحويرث رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا حضرتْ الصلاة فأذِّنا وأقيما وليؤمكما أكبركما ، وصلُّوا كما ترونى أصلى » .

(٢) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : « رأيت النبى ﷺ يرمى على راحلته يوم النحر يقول لنا : خذوا مناسككم ، فإنى لا أدرى لعلِّى أن لا أحج بعد حجتى هذه » أخرجه أحمد فى مسنده (٣/٣١٨) والنسائى فى سننه (٥/٢٧٠) ، ومسلم فى صحيحه (١٢٩٧) .

إذن : تكرر الفعل هنا ؛ لأن لله طاعةً في إجمالِ الحكم ، وللرسول طاعة في تفصيله ، فإنْ جاء الفعل واحداً ﴿وأطيعوا الله والرسول .. (١٣٢)﴾ [آل عمران] فهذا يعني توارد أمر الله تعالى مع أمر رسوله ﷺ ، فالطاعة إذن واحدة ، وهَبْ أن الله تعالى له فعْل ، ورسوله له فعْل ، فلا يفصل أحدهما عن الآخر ، بدليل قوله تعالى : ﴿وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله .. (٧٤)﴾ [التوبة]

فلم يَقُلْ : وأغناهم رسوله حتى يقول قائل : كل منهما يُغْنى بقدره ، إنما جاء الفعل واحداً ﴿أغناهم الله ورسوله .. (٧٤)﴾ [التوبة]

واقرأ أيضاً قوله تعالى : ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين (٦٢)﴾ [التوبة] ولم يقل : يرضوهما .

أما قوله تعالى : ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم .. (٥٩)﴾ [النساء] فلم يُكرِّر الأمر بالطاعة مع أولى الأمر ؛ لأنه لا طاعة لوليِّ الأمر إلا من باطن طاعة الله ، وطاعة رسول الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً (٣٣)﴾ [الأحزاب] الرجس بالسِّين هو الرِّجز بالزاي ، وهو القذارة ، سواء أكانت حسية كالميتة مثلاً ، وكالخمر ، أو معنوية كالآثام والذنوب ، وقد جمعتْها الآية : ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون (٩٠)﴾ [المائدة] وقد يُراد بالرجس : النفاق والمرض .

وكلمة (أهل) تُقال : لعشيرة الرجل ، لكنها تُطلَق في عُرْف الاستعمال على امرأته ، ومن بقية الاصطلاحات لهذا المعنى ما نقوله الآن حين نذهب لزيارة صديق مثلاً فنقول : معى الأهل أو الجماعة ، والبعض يقول : معى الأولاد ، ونقصد بذلك الزوجة ، لماذا ؟ قالوا :

لأن أمر المرأة مبنىٌّ على الستر ، فإذا كان اسمها مبنياً على الستر ، فكذلك معظم تكليفاتها مبنية على الستر فى الرجل ، ونادراً ما يأتى الحكم خاصاً بها .

لذلك ، السيدة أسماء بنت عميس[١] زوجة سيدنا جعفر بن أبى طالب ، وكانت قد هاجرت إلى الحبشة ، فلما عادت سألتْ : أنزلَ شىء فى أمر المرأة فى غَيْبَتى ؟ فقالوا لها : لم ينزل شىء ، فذهبت إلى سيدنا رسول الله ﷺ وقالت : يا رسول الله ، ما أعظم خيبتنا وخسارتنا ، فليس لنا فى الأحكام شىء ، فقال لها رسول الله ﷺ : « إنكن مستورات فى الرجال »[٢] .

ومع ذلك نزل القرآن الكريم بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ[٣] وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ

---

(١) هى : أسماء بنت عميس بن الحارث الخثعمى : صحابية ، أسلمت قبل دخول النبى ﷺ دار الأرقم بمكة ، وهاجرت إلى أرض الحبشة مع زوجها جعفر بن أبى طالب ، ثم قتل عنها جعفر شهيداً فى وقعة مؤتة (٨ هـ) فتزوجها أبو بكر الصديق فولدت له محمد بن أبى بكر ، وتوفى عنها أبو بكر فتزوجها على بن أبى طالب فولدت له ، وماتت بعد على . وصفها أبو نعيم بمهاجرة الهجرتين ومصلية القبلتين . [الأعلام للزركلى ٣٠٦/١] .

(٢) لم أقف على هذا الحديث ، ولكن أخرج الإمام أحمد فى مسنده (٢٥٦/٦) من حديث عائشة رضى الله عنها : « النساء شقائق الرجال » ، وكذا الترمذى فى سننه (١١٣) قال الخطابى فى « معالم السنن » ٧٩/١ : « أى : نظائرهم وأمثالهم فى الخُلُق والطباع ، فكأنهن شُقِقْنَ من الرجال » .

(٣) القنوت : هو الطاعة فى سكون . والقانت : المطيع الذاكر لله تعالى ، وهو العابد ، قال ابن سيده : القانت القائم بجميع أمر الله [لسان العرب ـ مادة : قنت] .

فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (٣٥) ﴾ [الأحزاب]

وتلحظ في هذه الآية أيضاً ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (٣٣) ﴾ [الأحزاب] أنها تتحدث عن النساء ، لكنها تراعى مسألة ستْر المرأة فتعود إلى ضمير الذكور ﴿ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ .. (٣٣) ﴾ [الأحزاب] ولم تقُلْ عنكُنَّ ، كذلك فى ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (٣٣) ﴾ [الأحزاب] ويصحّ أنه يريد أهلَ البيت جميعاً رجالاً ونساءً .

﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ .. (٣٤) ﴾ [الأحزاب] أى : نساء النبى ﴿ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ .. (٣٤) ﴾ [الأحزاب] أى : آيات القرآن الكريم ﴿ وَالْحِكْمَةِ .. (٣٤) ﴾ [الأحزاب] أى : حديث رسول الله ﷺ ، أو : أن عطف الحكمة على آيات الله من عطف الصفة على الموصوف ، لكن القول الأول أوْلَى ما دام أن الأمر فيه سعة .

ومعنى ﴿ وَاذْكُرْنَ .. (٣٤) ﴾ [الأحزاب] قلنا : إن الذكْر استحضار واستدعاء معلومة من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور ، والمعنى : استحضر ذكْر الله واجعلْه على بالك دائماً ؛ لذلك قال تعالى ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] أى : أكبر من أىّ عبادة ؛ لأن العبادات كما ذكرنا تحتاج إلى استعداد ، وإلى وقت ، وإلى مشقة ، وإلى تفرُّغ وعدم مشغولية .

أمّا ذكر الله فهو يجرى على لسانك فى أىّ وقت ، وبدون استعداد

أو مشقة ، ويلهج به لسانك فى أى وقت ، وعلى أى حال أنت فيه ، واقرأ فى ذلك قوله تعالى من سورة الجمعة : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠ ﴾ [الجمعة] فما دام أن الذكر هو أنْ تجعل الله على بالك ، فلا يمنعك من ذلك سَعْىٌ ولا عمل ؛ لأن الذِّكْر أخف العبادات وأيسَرُها على النفس ، وأثقلها فى الميزان .

ثم تأمل : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١ ﴾ [الأحزاب]

فمن عظمة سيدنا رسول الله ﷺ أن باله لم يَخْلُ لحظة من ذكر ربه أبداً ؛ لذلك ورد عنه ﷺ أنه قال عن نفسه : « تنام عينى ، ولا ينام قلبى »[1] .

ثم تُختم الآية بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ۝٣٤ ﴾ [الأحزاب] اللطف هو الدقَّة فى تناول الأشياء وحُسْن تأتِّى الأمور مهما كانت وسائلها ضيقة ، وسبق أنْ أوضحنا هذا المعنى وقلنا : إن الأشياء الضارة مثلاً كلما لطُفَتْ عنُفتْ ، فالحديد الذى تجعله على النوافذ ليحميك من الذباب ، غير الحديد الذى يحميك من الثعابين ، أو من الناموس والذباب .. إلخ ؛ لذلك نجد أن أفتك الأمراض تأتى من الفيروسات اللطيفة التى لم تُعرف .

وحُسْن التأتِّى للأمور يعنى التغلغل فى الأشياء مهما دَقَّتْ ، فقد تُضطر مثلاً لأنْ تُدخل يدك فى شىء ضيق لتتناول شيئاً بداخله ، فلا تستطيع ، فتستعين على ذلك بالولد الصغير ؛ لأن يده ألطف من يدك ، أو تستعين على ذلك بآلة أدقّ لتؤدى بها هذا الغرض .

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٢١١٣) كتاب صلاة التراويح ، وكذا أخرجه مسلم فى صحيحه (٧٣٨) كتاب صلاة المسافرين من حديث عائشة أنها قالت : يا رسول الله أتنام قبل أن توتر ؟ قال : يا عائشة إن عينى تنامان ولا ينام قلبى » .

ووَصْف اللطيف يُتمِّمه وصف الخبير ، فإذا كان اللطيف يعنى الدقة فى تناول الأشياء وحُسْن التأتِّى ، فالخبرة تعنى معرفة الموضع ، فاللطف لا يتأتى إلا بالخبرة .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَـٰتِ وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥) ﴾

قلنا : إن هذه الآية نزلت تطييباً لخاطر السيدة أسماء بنت عميس زوجة سيدنا جعفر بن أبى طالب ، لما حدَّثتْ سيدنا رسول الله فى

---

(١) **سبب نزول الآية** : أخرج الإمام أحمد فى مسنده (٦/٣٠١ ، ٣٠٥) عن أم سلمة قالت قلت : يا رسول الله ، ما لنا لا نُذكر فى القرآن كما يُذكر الرجال . قالت : فلم يرعنى منه يوماً إلا ونداؤه على المنبر يأيها الناس قالت : وأنا أسرح رأسى فلففت شعرى ثم دنوت من الباب فجعلت سمعى عند الجريد ، فسمعته ﷺ يقول : « إن الله عز وجل يقول : إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات . » هذه الآية .

وأخرج الترمذى فى سننه (٣٢١١) من حديث أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبى ﷺ فقالت : ما أرى كل شىء إلا للرجال وما أرى النساء يُذكرن بشىء ؟ فنزلت هذه الآية ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. (٣٥) ﴾ [الأحزاب] قال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب » .

أمر الأحكام ، وأنها تنزل وتتوجَّه فـى الغالب إلى الرجال ، ويبدو أنها حدَّثَتْ رسـول الله فى أمر النسـاء ، وأن منهن مـثل الرجال مسـلمات ومؤمنات .. إلخ .

ونلحظ أن الآية بدأت بذكر الإسـلام ، ثم الإيمان ، فأيّهمـا يسبق الآخر ؟ ونـجد إجـابة هذا السؤال فى قـول الحق سبـحانه وتعـالى : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [الحجرات]

فالإسلام أنْ تؤدى أعمال الإسلام بصرف النظر ، أكان أداؤك لها عن إيمـان أو عن غيـر إيمان ؟ لأن الإسـلام تلقِّى حكم ، أما الإيمـان فأنْ تؤمن بمَنْ حكم ، وتُصـدِّق مَنْ بلَّغك هذا الحكم ، وعليه فـالإيمان سابق للإسلام .

لذلك جاءت هذه الآية لتـفضح هؤلاء الأعراب الذين تسـتروا وراء الأعمال الظاهرة للإسـلام ، وهم غير مؤمنين بهـا ، وقد يأتى الإيمان بعـد الإسلام حـين تؤدى أعـمال الإسـلام فتـحلُو لك ، وتجـذبك إلى الإيمان والتصديق .

لذلك ، فرح هؤلاء الأعراب لـقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [الحجرات] وقالوا الحمد لله ؛ لأن (لَمَّا) لا تدخل إلا على ما يمكن أنْ يجىء ، كأن تقـول : لَمَّا يثمر بستـاننا ، وقد أثمرتْ البساتين ، والمعنى : أنه سيثمر فيما بعد .

قالوا : لأن هناك كـثيراً من الأحكام أنت لا تؤمـن بالذى حكم بها إلا إذا أدركتَ وذُقْتَ حلاوتها ، فالرجل الذى جـاء سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وطلب منه أنْ يبيت عنده ، أو : أنْ يضيـفه ، فسأله إبراهيم

عليه السلام عن دينه فقال : إنه مجوسى ، فردَّ الباب فى وجهه ، فعاتبه ربه فى ذلك ، وقال له : يا إبراهيم تريده أنْ يغير دينه لضيافة ليلة ، وأنا أسعُه طوال عمره وهو كافر بى ؟ فأسرع إبراهيم فى إثر الرجل حتى لحق به ودعاه إلى بيته ، فقال الرجل : ألم تنهرنى منذ قليل ، فماذا حدث ؟ فقال : لقد عاتبنى ربى فيك ، فقال الرجل : نِعْم الربّ ربٌّ يعاتب أحبابه فى أعدائه ، أشهد ألاَّ إله إلا الله .

وقد اشتملتْ هذه الآية على عشر صفات ، بدأت بالمسلمين والمسلمات ، وانتهت بالذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، وكأن الله تعالى أوجد مراد السيدة أسماء بنت عُميس فى هذه الصفات العَشْر التى جمعتْ الرجال والنساء ، واشتملت على كل أنواع التكليف ، وهى برقية تدلُّ على أن حكم المرأة التكليفى مطمور فى باطن الرجل ، وهذه هى الأصول .

ومعنى ﴿ وَالْقَانِتِينَ .. (٣٥) ﴾ [الأحزاب] المداومون على عبادة الله وطاعته فى خشوع وتضرُّع كما نفهم من قوله تعالى ﴿ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ .. (٣٥) ﴾ [الأحزاب] أن للمرأة ذمتها المالية المستقلة وحرية التصرُّف فى مالها بغير إذن زوجها إذا كانت تملك إرثاً أو هبة من زوجها أو من غيره . فلا ولايةَ عليها من أحد .

وسبق أن أوضحنا هذه المسألة فى كلامنا عن الزكاة ، وهذه من ميْزات المرأة فى الإسلام ، حيث كانت قبل الإسلام ، وحتى فى الحضارات الحديثة تابعة لأبيها أو لزوجها ، والصدقة تشمل الزكاة ؛ لأن الله قال فيها : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا .. (٦٠) ﴾ [التوبة]

فالصدقة هى العنوان الأعم ، ومعناها أنك صدَّقْتَ الحق سبحانه حين استأمنك على خير، فاستنبط بمجهودك وسعيك فى أرض الله التى خلقها ، فكأنك تُحقِّق ما كان من سيدنا أبى بكر حين سأله رسول الله ﷺ : ماذا صنع بماله الذى كسبه فى الغنيمة ؟ قال : تصدَّقْتُ به كله ، فقال له : « وماذا أبقيتَ لأهلك ؟ » قال : أبقيت لهم الله ورسوله . فلما سأل عمر ـ رضى الله عنه ـ قال : تصدَّقْتُ بنصفه ، ولله عندى نصفه[1] .

فكلٌّ منهما تصرَّف فى ماله تصرُّفاً منطقياً يناسبه .

وإنْ كانت الزكاة يُراد بها نماء المال وطهارته ، فالصدقة عطاء لا يُرَاد به إلا وجه الله وثوابه فى الآخرة ، فكأن المتصدِّق يريد أنْ يبرَّ ، وأنْ يعترف لله المعطى بالفضل ؛ لأن الله مكَّنه من مال لم يُمكِّن منه الضعيف ، ولا غير القادر .

ثم ذكر الحق سبحانه تكليف الصوم ﴿ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ .. (٣٥) ﴾ [الأحزاب] والصوم أخذ حُكْماً فريداً من بين أحكام التكاليف كلها، والحق سبحانه جعل لكل تكليف من التكاليف (كادر خاص) فى الجزاء إلا الصوم ، فليس له (كادر) محدد ، لذلك قال عنه الحق سبحانه : « إلا الصوم ، فإنه لى ، وأنا أجزى به »[2] يعنى : قرار عالٍ فوق الجميع . فلماذا أخذ الصوم هذه المنزلة ؟

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (١٦٧٨) ، والترمذى فى سننه (٣٦٧٥) والحاكم فى مستدركه (١/٤١٤) وصححه . وقال الترمذى : « حديث حسن صحيح » .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٩٠٤) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢/٨٠٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وهو حديث قدسى عن رب العزة سبحانه .

قالوا : لأن الصوم هو العبادة الوحيدة التي لم يعبد بها بشرٌ بشراً أبداً ، فمن الممكن مثلاً في شهادة أنْ لا إله إلا الله أنْ يأتي مَنْ يمدح آخر ، فيقول له : ليس في الكون إلا أنت ، أنت النافع وأنت الضار ، وهناك من قال عن نفسه : أنا الزعيم الأوحد ، كذلك في الصلاة نرى مَنْ يخضع ويسجد لغير الله كما نخضع ونسجد نحن في الصلاة ، وكذلك في الزكاة نتقرب إلى العظيم أو الكبير بالهدايا له أو لمن حوله .

لكن ، هل قال بشر لبشر : أنا أصوم شهراً ، أو يوماً تقرُّباً إليك ؟ لا .. لأن الصيام للغير المماثل تذنيب للمصوم له لا للصائم ؛ لأنه سيُضطرّ لأنْ يظل طوال اليوم يراقبك ، أكلتَ أم لم تأكل ؟

ولأن الصوم هو العبادة الوحيدة التي لم يتقرب بها بشر لبشر قال الله عنها في الحديث القدسي : « كل عمل ابن آدم لهَ إلا الصوم ، فإنه لي ، وأنا أجزي به »[1] يعني : جزاؤه خارج المقرر كما قلنا .

ومن عظمة تكليف الصوم أيضاً أن الله تعالى أحلَّ لنا أشياء ، وحرَّم علينا أشياء أخرى تحريماً أبدياً ، فالذي تحمَّل التكليف ألِفَ الحلال ولم يألف ما حُرِّم عليه ، ورسختْ هذه العقيدة في نفسه ، حتى أن الحرام لا يخطر بباله أبداً ، فلم يأت على باله مرة مثلاً أنْ يشرب الخمر ، أو يأكل الميتة ، فهذه مسألة منتهية بالنسبة له ، فأراد الله تعالى أنْ يديم لذَّة التكليف على البشر ، ففرضَ الصومَ الذي يُحرِّم عليك اليوم ما كان مُحلَّلاً لك بالأمس ومألوفاً حتى صار عادة .

إذن : هناك فَرْق بين دوام العادة ولذة العبادة ، وتأمل مثلاً يوم الفطر ، والفطر عادة لك في غير هذا اليوم ، وأنت حر تفطر أو لا تفطر ، فإذا ما جاء يوم عيد الفطر أخرجك ربك من العادة إلى

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (١٩٠٤) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢/٨٠٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

العبادة ، وجعله تكليفاً أنْ تفطر قبل الخروج للصلاة[1] .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ .. (٣٥) ﴾ [الأحزاب] جاءتْ مسألة حفْظ الفروج بعد ذكر الصيام ؛ لأن الصيام امتناعٌ عن شهوتَيْ البطن والفرج ، شهوة البطن جعلها الله تعالى لحفظ الحياة بالطعام والشراب ، وشهوة الفرج جعلها الله تعالى لحفظ النوع بالنكاح والتناسل .

قُلْنا : إن الله تعالى أرضى السيدة أسماء رضى الله عنها الممثِّلة لجنس النساء ، فذكر أنواع التكاليف مرة للمذكَّر ، ومرة للمؤنث ، لكنه راعى في ذلك سَتْر المرأة ، وهنا أيضاً يُراعى هذه المسألة ، فيقول : ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ .. (٣٥) ﴾ [الأحزاب] حينما تكلم عن المذكَّر قال ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ .. (٣٥) ﴾ [الأحزاب] ولم يقُلْ : والحافظات فروجهن ؛ لأن أمر النساء ينبغي أنْ يُسْتر وأنْ يُصَان .

ثم يقول سبحانه ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ .. (٣٥) ﴾ [الأحزاب] ويعود إلى مسألة السَّتْر مرة أخرى في قوله : ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥) ﴾ [الأحزاب] فقال (لهم) على سبيل التغليب ، وسَتْر المرأة في الرجل ، وهذه مسألة مقصودة يُراد بها شرف للمرأة ، وصيانة لها ، لا إهمالها كما يدَّعي البعض ، ومن هذه الصيانة ما نقوله نحن عن المرأة : معي أهلي أو الأولاد أو الجماعة ، ونقصد بذلك سَتْرها وصيانتها لا إهمالها ، أو التقليل من شأنها .

---

(١) عن بريدة الأسلمي قال : « كان رسول الله ﷺ لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل ، ولا يأكل يوم الأضحى حتى يرجع فيأكل من أضحيته » أخرجه أحمد في مسنده (٥/٣٥٢) . قال الشيخ سيد سابق في « فقه السنة » (١/٢٦٨) : « قال ابن قدامة : لا نعلم في استحباب تعجيل الأكل يوم الفطر اختلافاً » .

فكأن الحق سبحانه حينما أرضى السيدة أسماء نيابةً عن المرأة المسلمة ، فذكر ما ذكر من جمع المؤنث الذى يقابل جمع المذكر ، أراد أنْ يبنى حول المرأة سياجاً من الستر فى كل شىء حتى فى التكاليف .

ونلحظ على سياق الآية هنا أيضاً أنه قدَّم المغفرة على الأجر ؛ لأن القاعدة كما قُلْنا : إن دَرْء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة ، والحق سبحانه يُعد لعباده الأجر على الحسنة التى فعلوها ، مع أنه سبحانه لا ينتفع منها بشىء إنما يعود نَفْعها على المكلَّف نفسه ، فهو يستفيد بالطاعة وينال عليها الأجر فى الآخرة .

أما الحق سبحانه فغنىٌّ عنَّا ، وعن طاعتنا ، واقرأ الحديث القدسى : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى مُلْكى شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً »[1] .

إذن : نحن المستفيدون من التكاليف ، ففيها صلاحُنَا فى الدنيا ، ثم نأخذ عليها الأجر يوم القيامة .

لذلك نجد الكثير من الرسل يقولون لأقوامهم : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ .. ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الشعراء] كأنه يقول : الذى أؤديه لكم من تبليغ دعوة الله فى عرف الاقتصاد والتبادل يقتضى أنْ آخذ عليه أجراً ؛ لأننى أؤدى لكم خدمة ، لكن ماذا سآخذ منكم أيها العرايا وأجرى عالٍ لا يقدر عليه المكلَّف ﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [يونس] فهو

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) ، وكذا الترمذى فى سننه (٢٤٩٥) من حديث أبى ذر رضى الله عنه .